الأدب التركي

في موكب الحضارة الإسلامية

د. محمد عبد اللطيف هريدي

مَنْ يقلّب في صفحات تاريخ الأدب التركي، يدرك لأول وهلة، أن الأدب نبض حياة الامم، وسجل تاريخها؛ فهو يعبر عن مكنون وجدانها الجمعي من ناحية،، كما يرافقها في مسيرة حياتها خطوة بخطوة من ناحية أخرى . هذه واحدة أما الحقيقة الثانية التي ستنجلي أمامنا عندما نطالع الإنتاج الأدبي للترك فهي؛ أن الدين الإسلامي قادر على تهذيب الأمم، والسمو بها من طور البداوة إلى مرحلة المدنية، ولأنه دين الفطرة والوسطية فهو يتملّك الأمم أيضاً بقدر ما تعض عليه بالنواجذ. وسنحاول فيما يلي أن ندلل على صحة قولنا هذا بينما نتابع مسيرة الأدب التركي ومواكبته للحضارة الإسلامية.

تَمثُّل الترك للحضارة الإسلامية:

قبل أن يتعرف الترك على الإسلام كانوا مجرد قبائل رعوية في الشمال الشرقي من هضبة منشوريا؛ أي غربي الصين ثم اضطرت هذه القبائل إلى الزحف غرباً في أواخر القرن الخامس الميلادي تحت ضغط الصين من ناحية، وسعياً وراء الكلأ من ناحية أخرى، ولم يُعرف لهم أدب مكتوب ولم يؤثر عنهم من كتابات سوى نقوش «اوروخون» التي يُرجّح أنها ترجع إلى أواخر القرن السادس الميلادي.

عندما عبرت جيوش الفتح الإسلامي بقيادة قتيبة بن مسلم إلى خراسان وما وراء النهر (عام٩٥هـ) كان الاتراك قد استوطنوا تلك الأصقاع وكوّنوا فيها دولتين متحاربتين وكانتا في صراع دائم، وتبادلا النصر والهزيمة مع الجيوش الإسلامية ثم انسحبت جحافلهم إلى الشرق ريثما تعيد الكرّة ضد جيوش المسلمين، ولكنهم سرعان ما عادوا ليدخلوا في دين الله أفواجاً، لذا حق القول بأن «الترك إنما اعتنقوا الإسلام طواعية» وعن اقتناع.

ولم يكد يمضي قرن من الزمان حتى كانت بلاد الترك جميعاً قد دانت بالإسلام، وزاد اتصالهم بالدولة الإسلامية في عهد بني أمية فقد استخدمهم خلفاؤها كحرس خاص، ثم قويت الصلات في العصر العباسي وكلنا يعرف النفوذ التركي على البلاط العباسي، ونتيجة طبيعية لهذا النفوذ استعملهم الخلفاء العباسيون كولاة على الأقاليم ومنهم من قويت شوكته فاصبحت لهم دويلات شبه مستقلة نذكر منها الدولة الطولونية في مصر والشام. أما في خراسان وما وراء النهر فقد أقاموا دولاً مستقلة تماماً مثل الغزنوية والسلجوقية.

لم يتوقف دور الأتراك في ذلك العصر على النفوذ العسكري والسياسي، بل تعداه إلى الثقافة والفكر الإسلامي فظهر من بين ظهرانيهم المفسرون مثل الزمخشري، والأدباء مثل أبي بكر الصولي، والعلماء مثل أبي بكر الخوارزمي والفارابي وغيرهم كثير.

فإذا رجعنا إلى اللغة التركية وهي التي كُتب بها الأدب موضوع حديثنا فنجدها لم تكن سوى لغة تخاطب حتى القرن الخامس الهجري تقريباً؛ فرغم غلبة العنصر التركي وتوليهم الحكم في الدولة الغزنوية والسلجوقية كانت الفارسية والعربية لغتي الأدب والحضارة آنذاك. ولكن احتكاك الأتراك بالعرب والثقافة العربية والفارسية هذّب من لغتهم وبدأوا يكتبون بها وكان كتاب «ديوان لغات الترك» لمحمود الكاشغري (عاش خلال القرن الخامس الهجري) أولى ثمار هذا الاحتكاك، ثم ظهر «كتاب السعادة» و «عتبة الحقائق» وكلها تدل على أن الأتراك بدأوا يتمثلون الحضارة الإسلامية. ليس ذلك فحسب بل نفذ الإسلام إلى أدبهم متمثلاً في أساطيرهم الشعبية، فنجد أسطورة مثل أسطورة «صاتوق بغراخان» تروي أن بطلها كانت روحه من الأرواح التي التقى بها الرسول ﷺ في مسراه ليلة الإسراء والمعراج، وأن البطل هذا هو الذي حارب الكفّار ونشر الإسلام في بلاد الترك بل وفي امبراطورية الصين أيضاً.

لم يتوقف دور الأتراك عند النفوذ العسكري بل تعداه إلى الثقافة والفكر الإسلامي

وهكذا عندما عَبَر الأتراك إلى الأناضول واستوطنوه أبان حكم سلاجقة الأناضول (٤٧٠-٧٠٨هـ) كانت ذخيرتهم الثقافية إسلامية

الجوهر والشكل، وكانت لغتهم قد رقّت وأصبحت لغة أدب ومنذ هذا الوقت عُرفت في التركية لهجتان رئيستان:

١ - التركية الشرقية: ومنها تفرعت اللهجة الآذرية والتتارية واليغطانية وغيرها من اللهجات التي يتحدث به الترك في الجمهوريات الإسلامية في روسيا وإيران وغربي الصين.

٢ - التركية الغربية: وإليها تنتمي التركية العثمانية والحديثة التي يتحدث بها أتراك تركيا وقبرص والأقليات التركية في البلقان.

نشأة الأدب التركي العثماني:

لم تكن إمارة آل عثمان سوى واحدة من الامارات الحدودية للدولة السلجوقية في الأناضول، استطاع زعيمهم أن يحوّلها إلى دولة قامت على انقاض الدولة السلجوقية ومتاخمة لحدود بيزنطة فتبنى مؤسسها «مبدأ الجهاد في سبيل الله» ووسّع من رقعة دولته على حساب بيزنطة، وسار ابنه أورخان على نهجه فأقام الدولة العثمانية على أسس إسلامية، مستعيناً بما ورثته الدولة من نظم الحكم السلجوقية والعباسية والأيوبية وغير ذلك من الدول التي سبقتهم.

وكان من الطبيعي، وقد نشأ الأدب في هذه البيئة الإسلامية أن يستقي موضوعاته من مصادر إسلامية، فكان على رأسها القرآن الكريم الذي ترجمت معانيه إلى التركية في وقت مبكّر، ثم سيرة الهادي البشير؛ وقد تُرجمت نظماً في أواخر القرن الثامن الهجري، فإذا أضفنا إلى ذلك سِيَر الصحابة وبطولاتهم استطعنا أن نحدد المنابع التي نهل منها الشعراء والأدباء الترك في أول عهدهم بالأدب.

لذلك كله لم يتوان الشعراء الترك عن نظم القصص القرآني فنظم الشاعر أحمدي مثنوي (اسكندرنامه). ونظم شيخي (ت ٨٣٥هـ) مثنوي «يوسف وزليخة». أما السيرة النبوية الشريفة فقد راجت وانتشرت بعد أن نظمها سليمان حلبي (ت ٨٢٥ هـ) فيما عُرف بقصة «المولد» التي قلده فيها كثيرون حتى صارت فناً مستقلاً من فنون الشعر التركي، وعرف الأدب الشعبي التركي سيرة «بطالنامه» وبطلها القائد الأموي عبد الله بن عمرو الأقطع (توفي ٢٤٩ هـ)؛ وكانت تصوّر فتوحاته وبطولاته في الأناضول أمام جيوش بيزنطة، وهي نفس السيرة التي عُرفت في الأدب العربي باسم «الأميرة ذات الهمة».

وقد تأثر الأدب التركي -في نشأته- بالأدب العربي عن طريقين: أحدهما مباشر، والآخر عن طريق الفُرس الذين ترجموا عنهم وحاولوا

عندما وجد الشعراء الأتراك في القصص القرآني معيناً لا ينضب

مباراتهم؛ لذا نجد موضوعات الأدب العربي وفنونه تنفذ إلى الأدب العثماني، فينظم الشعراء قصص البطولة والحب مثل «قصة ليلى والمجنون» التي نقلوها عن الفرس، وقصة «سندباد الحكيم» وقصص «كليلة ودمنة» ومقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري. بل ونظم الشعراء الترك شعرهم في شكل القصيدة العربية وعلى أوزان العروض العربي، الذي ظل سائداً حتى العصر الحديث، عندما قامت حملات القوميين التصفوية والتي استهدفت تصفية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية وتخليص الشعر من أوزان العروض العربية.

وفي ختام حديثنا عن نشأة الأدب التركي العثماني لا ننسى أن نذكر أن الشعر عبّر إما بصورة معتدلة عن الاتجاه الصوفي الذي كان سائداً آنذاك، مثلما وجدنا عند الشاعر الشعبي يونس أمره (توفي ٧٢٠هـ) أو بصورة فيها مغالاة وانحراف عن العقيدة مثل كثير من شعراء القرن التاسع الهجري وكانوا في ذلك متأثرين بما ظهر من مدارس ومذاهب صوفية كانت قد وجدت في الأناضول بيئة صالحة لوجود المؤثرات الأجنبية الكثيرة.

لم يكد ينتصف القرن التاسع الهجري حتى وجدنا الشعر التركي يقدم نماذج متقدمة فنياً، وعالج فيها أصحابها موضوعات إسلامية، فنظم (أحمدي) سالف الذكر تاريخ آل عثمان مشيداً بفتوحاتهم الإسلامية، كما بكى الشاعر الحاكم -وهو صاحب الإمارة- القاضي برهان الدين (٨٠١ هـ) بغداد إذ غزاها المغول.

واضطلع النثر التركي آنذاك بدور التسجيل، فبدأ الأدباء تدوين تاريخ العثمانيين وتسجيل أمجادهم مادحين فيهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل حاكم مسلم. نرى ذلك في تاريخ «أبي الفتح» لطورسون بك، و«تواريخ آل عثمان» لعاشق باشا (توفي ٨٠٣ هـ) ومثله لأنوري (توفي ٨٦٩ هـ) وكان سنان باشا (ت ٨٩١ هـ) رائد النثر الفني في هذه المرحلة قدّم نماذج نثرية محملة بألوان البديع وفنون البيان العربيين.

العصر الذهبي:

يعد القرن العاشر الهجري العصر الذهبي للدولة العثمانية من جميع النواحي؛ إذ وصلت أقصى اتساع لها بحيث أصبح البحر المتوسط بحيرة عثمانية وطرقت جيوشها أبواب فيينا غرباً واستولت على العراق وهزمت ايران شرقاً، وحصل - بعد فتح مصر والشام- على مفاتيح الحرمين والخلافة الإسلامية، وأخضع خير الدين بربروس القائد البحري سواحل المغرب وأسبانيا وفرنسا لسلطان الأسطول العثماني، وظهر هذا الأسطول